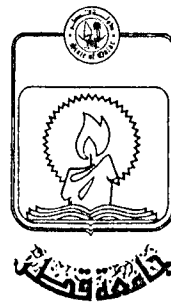


02 MAR 2002

مكتبة البنين - الدوريات

12431



مجلة

مركز بحوث
الاسلاميات

العدد التاسع

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦-١٩٩٧ م

نظرات في التفسير العلمي للقرآن

* بقلم: أ.د. يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

- ١ - بين المعارضين والمؤيدين من المعاصرين
- ٢ - بين الغزالي والشاطبي من القدماء
- ٣ - الموقف الذي نختاره بين الفريقين
- ٤ - مجالات لاستخدام العلم لا خلاف عليها
- ٥ - بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن

التفسير العلمي للقرآن

اشتهر في عصرنا لون جديد من التفسير، أطلق عليه (التفسير العلمي للقرآن). ويقصد به: التفسير الذي تستخدم فيه (العلوم الكونية) الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميها، وتوضيح معانيه.

ويراد بالعلوم الكونية: علوم الطبيعة والفلك وعلوم الأرض (الجيولوجيا) والكيمياء، وعلوم الحياة (البيولوجيا) من النبات والحيوان، وعلوم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء (الفسولوجيا) وعلوم الرياضيات ونحوها.

وقد يدخل فيها بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل علوم (النفوس) و(الاجتماع) و (الاقتصاد) و(الجغرافيا) وغيرها.

والذين يعنون بهذا اللون من التفسير في الغالب ويتحمسون له، هم من علماء الكون والطبيعة، وليسوا من علماء الدين والشريعة.

وعلماء الدين والشريعة مختلفون فيما بينهم حول جواز هذا اللون من التفسير، ومدى شرعيته.

وفي الخمسينيات من هذا القرن (العشرين) ثارت معركة جدلية على صفحات الصحف المصرية، بين فريقين من علماء الدين حول هذه القضية، وأحسب أن الخلاف فيها لم يزل إلى يومنا هذا، بين منتصر لهذا الرأي ومنتصر لمخالفه.

وقبل ذلك وجدنا من كبار العلماء الباحثين المحدثين: المؤيدين والمعارضين، وإن كان المعارضون أكثر وأوفر.

معارضة الشيخ شلتوت:

وجدنا من المعارضين الإمام الأكبر: الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، الذي أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا، أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها، وأخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها. قال الشيخ عن هؤلاء:

(نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الانعام: ٣٨) فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية).

نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صورة من التفكير لا يريدونها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله!

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة، لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه.

فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم.

وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة، ولم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول.

قيل: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَكُمْ اللَّهُ يَفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩).

وإنك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع؟^(١)

(١) مقدمة تفسير الشیخ شلتوت ص ١١-١٤ طبعة دار الشروق بصر.

معارضة الشيخ أمين الخولي وآخرين:

ووجدنا من المعارضين الأستاذ الشيخ أمين الخولي في بحثه المركز (التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم) وقد نقل فيه رأي الشاطبي، واعتراضه على الذين أرادوا أن يخرجوا بالقرآن عن نهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون، وفي إطار ما يعهدون من علوم ومعارف، ورد على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين، دينية ودنيوية، شرعية وعقلية!

وهو رأي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق، قاله في تقديمه لكتاب الدكتور عبد العزيز (باشا) إسماعيل (الإسلام والطب الحديث)^(٢).

ورأي د. عبد الحليم محمود، والشيخ عبد الله المشد، والشيخ أبو بكر ذكري، أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الموجز للقرآن، الذي كان ينشر في مجلة (نور الإسلام) لسان علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر.

معارضة سيد قطب:

وينحو صاحب (الظلال) - سيد قطب رحمه الله - هذا المنحى في تفسيره لآية (يسألونك عن الأهلة)^(٣)، إذ يقول: بقلمه البليغ: (واني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

«إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه. بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه، ويعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في

(٢) ذكر ذلك الدكتور الذهبي في الجزء الثاني من كتابه (التفسير والمفسرون) ص ٤٩٥، ٤٩٦ ط المختار الإسلامي سنة ١٩٨٥ نشر مكتبة وهبة.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة، قل: هي مواقيت للناس والحج﴾ البقرة: الآية ١٨٩.

طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما نسميه (حقائق علمية) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني - أيا كانت الأدوات المتاحة له - فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري!

هذا بالقياس إلى (الحقائق العلمية).. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى (علمية). ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية؛ وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه.. وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست (حقائق علمية) حتى بالقياس الإنساني. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحويوية أو النفسية أو الاجتماعية، إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق! ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم..

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم. على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه. والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبتته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي. حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف

بعض أسرارها، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته. نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة:

والثالث: هو التأويل المستمر - مع التمثل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يجد فيها جديد. وكل أولئك لا يتفق وجمال القرآن، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي، كما أسلفنا^(٤).

الإمام الغزالي والتفسير العلمي:

والموضوع قد أثير من قديم، ويبدو أن أول من أثاره هو الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله، فقد ذكر في (الإحياء) قول ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن. ونحو ذلك من الأقوال، ثم قال: (وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها. وفي القرآن إشارة إلى مجامعها)^(٥).

وفي كتابه (جواهر القرآن) وهو مؤلف بعد (الإحياء) عاد إلى الموضوع وتوسع فيه. وفيه ذكر أن جميع العلوم (مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له)^(٦).

ثم ذكر من أفعال الله تعالى: الشفاء والمرض، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠)، قال: وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذا لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.. إلى أن قال: (لا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦ - ٨) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها... الخ.. فهذان مثالان لتخريج الغزالي العلوم المختلفة من القرآن.

ومن هنا نفهم معنى قول الغزالي إن علوم الأولين والآخرين ليست خارجة عن القرآن، فكأنه يقول: إن العلوم كلها خادمة لحسن فهم القرآن، كما أن القرآن نفسه يشير إليها، ويدل عليها، بصورة من الصور الضمنية أو الكلية.

(٤) في ظلال القرآن ج ١ - ١٨٠ - ١٨٢ طبعة دار الشروق.

(٥) الإحياء ج ١/٢٨٩ ط دار المعرفة بيروت.

(٦) انظر: جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤.

وقد قال في الإحياء: (بل كل ما أشكل فهمه على النظر (علماء المعقول) واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز، ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدرورها) (٧).

ابن أبي الفضل المرسي والسيوطي:

وجاء بعد الغزالي ابن أبي الفضل المرسي، الذي سجل السيوطي رأيه في (الاتقان) (٨) وهو أشبه برأي الغزالي، فقد ذكر - فيما ذكر - أن أصول الصنائع المذكورة في القرآن كالحياطة في قوله: ﴿ وَطَفِقًا مَخَصَّفَانِ ﴾ (الأعراف: ٢٢) والحدادة ﴿ وَأَثْوَى ذُرِّي الْحَدِيدِ ﴾ (الكهف: ٩٦) والبناء في آيات (٩). والنجارة: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (هود: ٣٧) والغزل: ﴿ كَأَلْتِي نَقَصْتِ غَزْلَهَا ﴾ (النحل: ٩٢) والملاحة: ﴿ أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ ﴾ (الكهف: ٧٩) والفخارة ﴿ فَأَوْوَدَلِي يَنْهَمْنُنُ عَلَى الْعُطِينِ ﴾ (القصص: ٣٨) وهكذا.

فبهذه الإشارات القرآنية اعتبر أصول الصنائع موجودة في القرآن!

وقد أيد السيوطي في (الاتقان) وفي كتابه (إكليل التأويل في استنباط التنزيل) هذا التوجه. واستدل له بالقرآن والحديث، ويقول ابن مسعود والحسن والشافعي وغيرهم.

أبو إسحاق الشاطبي والتفسير العلمي:

ولقد رأينا الإمام أبا إسحاق الشاطبي رحمه الله، قد عارض هذا التوجه في كتابه (الموافقات) معتمداً على أن الشريعة نزلت في الأساس لقوم أميين، فهي - على حد تعبيره - شريعة أمية! فلا ينبغي أن نخرجها إلى حد التكلف والتعقيد والتفلسف. وإن بالغ في ذلك، حتى تعقبه العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) (١٠). كما تعقب بعضه العلامة الشيخ عبد الله دراز في تعليقه على الموافقات (١١).

بين الشاطبي أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية، لأن الله بعث بها رسولاً أمياً إلى قوم أميين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢)

(٧) الإحياء. السابق.

(٨) في النوع الخامس والستين: في العلوم المستنبطة من القرآن ج ٢٧/٤ - ٣١.

(٩) أي في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ البقرة: ١٢٧.

(١٠) انظر: مقدمة (التحرير والتنوير).

(١١) انظر: الموافقات وتعليقات دراز ج ٦٩/٢ وما بعدها.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(١٢). فيلزم أن تكون الشريعة على معهودهم وفي مستواهم.

ثم بعد هذا البيان أوضح الشاطبي أن الشريعة - في تصحيح ما صححت، وإبطال ما أبطلت - قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، ثم يتوجه باللوم إلى قوم أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين! مفنداً هذه الدعوى قائلاً: (ما تقرر من أمية الشريعة، وأنها جارية على مذاهب أهلها - وهم العرب - ينبني عليه قواعد، منها: أن كثيراً من الناس تجاوزوا - في الدعوى على القرآن - الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين، من علوم الطبيعيات والتعاليم [كالهندسة وغيرها من الرياضيات] والمنطق وعلوم الحروف، وجميع ما نظر إليه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح)^(١٣).

ثم يدل الشاطبي على رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن فيقول: (إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن ويعلمونه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا، نعم تضمن علوماً من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتمام بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا)^(١٤).

ثم شرع الشاطبي بعد هذا في ذكر الأدلة التي استند إليها أرباب هذا (التفسير العلمي) فقال: (وربما استدلووا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَرَزَّأَعَالِيكَ الْكِتَابَ يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) ونحو ذلك، ويفوتح السور - وهي مما لم يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء^(١٥).

بعد ذلك طفق الشاطبي ينقض هذه الأدلة، واحداً بعد الآخر بمنطقه القوي، فقال رحمه الله: (فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد،

(١٢) متفق عليه عن ابن عمر (اللؤلؤ والرجان: ٦٥٥).

(١٣) الموافقات ج ٢ ص ٧٩.

(١٤) الموافقات ج ٢ ص ٧٩، ٨٠.

(١٥) المصدر السابق (٢/٨٠).

أو المراد بالكتاب في قوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء): اللوح المحفوظ، ولم يذكرها فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم العقلية والعقلية.

وأما فواتح السور: فقد تكلم فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً، كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق) (١٦).

ومنطق الشاطبي هنا منطوق قوي، وأدلته لا مطعن فيها، إلا ما كان من اعتماده على (أمية الشريعة) بناء على أمية الأمة. ذلك أن أمية الأمة ليست أمراً مطلوباً ولا مرغوباً فيه، بل بعث الله رسوله في الأميين رسولاً ليخرجهم من الأمية إلى باحة العلم والنور، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢) فهذه مهمة الرسول مع الأميين: التلاوة والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة. ولا عجب إن كانت الآيات الأولى من الوحي تنبئ بذلك: ﴿ أقرأ يا سوريك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق: ١ - ٥) وأقسم سبحانه بالقلم فقال: ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: ١)

فالأمية ممدوحة في حقه ﷺ، لأنها أدل على الإعجاز، وليست ممدوحة في الأمة، وعلى الأمة أن تتحرر منها لتتعلم وتتفقه وتنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)

ولقد كان الرسول الكريم هو أول من حارب الأمية، كما رأينا ذلك حين قبل في أسرى بدر أن يفتدي بعضهم نفسه، إذا كان كاتباً، أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة. ومن أجل هذا لا نقبل فكرة أمية الشريعة إلا إذا حملت على معنى الفطرية والسهولة، والبعد عن التكلف والتعقيد. وبالله التوفيق.

(١٦) نفسه (٢: ٨١، ٨٢).

الموقف الذي نختاره

ولقد رأينا المواقف هنا، كما في معظم القضايا العلمية والفكرية المختلف فيها، تتجه ثلاثة اتجاهات: طرفين وواسطة.

ففي طرف نجد الذين يرفضون رفضاً مطلقاً إدخال العلوم الكونية في مجال التفسير. بعداً بالقرآن عن مظنة التغير بتغير نتائج هذه العلوم.

وفي طرف آخر رأينا الذين يغفلون في استخدام هذه العلوم غلواً كبيراً، ويتكلمون في إظهار القرآن بمظهر المشتمل على كل هذه العلوم، والسابق بنظرياتها وحقائقها! وهم يجتهدون في إبراز ما سموه (الإعجاز العلمي) بكثير من التحمل.

وهناك موقف بين هؤلاء وأولئك، هو الموقف العدل الوسط، الذي لا يبالغ في النفي، ولا يغلو في الإثبات.

وخلاصة هذا الموقف تتضح في جملة أمور، أو مبادئ:

١- ضرورة المعرفة بأوليات هذه العلوم:

أول هذه المبادئ: أنه لا بد لمن يريد تفسير القرآن في عصرنا: أن يكون ملماً بمبادئ هذه العلوم الطبيعية والكونية، ليستخدمها فيما لا بد منه من بيان معاني القرآن، وتوضيح مقاصده ودلالاته، وإلا كان التفسير قاصراً عن اللحاق بالعصر وأهله. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤) ولا بد لمن يعيش في القرن الخامس عشر الهجري، أن يخاطب الناس بلسان هذا القرن، لا بلسان قرون مضت.

وكما أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإن تفسير القرآن، وشرح الحديث، وأسلوب الدعوة، كلها تختلف باختلاف الزمان والمكان كذلك.

ولقد رأيت بعض المشايخ الذين تعقبوا سيد قطب في (ظلاله) الشهيرة ينكرون عليه رحمه الله أشياء غريبة، مثل حديثه عن المجموعة الشمسية وعن المجرات الكونية، وغير ذلك مما يدل على الجهل المطبق للمتعقب بهذه العلوم. قد قيل قديماً: من جهل شيئاً عاداه.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا مُّحِيطًا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَأْوِيلَهُ ﴾ (يونس: ٣٩).

٢- انتباه المتخصص في العلوم إلى ما لم ينتبه له غيره:

ثم إنه من المقرر والمعلوم: أن كل مفسر للقرآن يتأثر بثقافته التي أتقنها وتخصص

فيها، كما رأينا ذلك في تفاسير علمائنا القدامى، فتفسير الفقيه غير تفسير المتكلم، وهما غير تفسير اللغوي، وتفاسير هؤلاء غير تفسير الصوفي.

بل إن كل قارئ للقرآن يفهم منه، ويأخذ عنه، بحسب ثقافته وتوجهه، وهذا ما يشبه العلم نفسه.

فقد قرر علم النفس أن قوة الانتباه إلى الشيء لها علاقة بما اختمر في نفس الإنسان وبما يهتم به، فالصورة أو اللوحة الفنية قد يراها أكثر من واحد، فمنهم من لا يلتفت إليها أصلاً. ومنهم من ينظر إليها نظرة خاطفة، ومنهم من يتأملها تأملاً مفصلاً عميقاً، فانتباه الرسام إليها ليس كانتباه الشاعر، وانتباه الشاعر ليس كانتباه الرجل العادي.

هذا قانون عام من قوانين النفس أو الحياة، لا يمكن مقاومته ولا المراء فيه.

ومن الطبيعي بعد هذا: أن نجد المفسرين للقرآن ينتبه كل منهم إلى ما لا ينتبه إليه الآخر، وفق ثقافة كل منهم وذوقه ومحو اهتمامه.

فرجل البلاغة: يلمح النكات البيانية، والأسرار التعبيرية والبلاغية.

والفقيه: يستنبط الدقائق التشريعية.

والصوفي: ينجذب للأذواق الروحية والسلوكية.

والاجتماعي: يلتفت إلى السنن والظواهر الاجتماعية.

والعالم الطبيعي: ينتبه للآيات والظواهر الكونية.

سئل بعض الصوفية: هل تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: نعم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ (المائدة: ١٨) فهذه اللفتة جدير بذى التحليق الروحي أن ينتبه إليها.

واستنبط الإمام مالك أن الرق لا يجامع البنوة، فلا يكون ابن الإنسان عبداً له،

لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (أي الملائكة) سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿ (الأنبياء: ٢٦) فالعبودية تنافي البنوة. فهذه الدقيقة لا ينتبه لها إلا الفقيه.

إذا عرفنا ذلك، فلا ينبغي أن ننكر على العالم - من علماء الكون والطبيعة - أن

ينتبه إذا قرأ الآية من القرآن، إلى ما فيها من معان تتصل بثقافته وتخصصه، لم ينتبه إليها غيره من علماء الدين والشرع، أو من فحول علماء البلاغة والكلام والفقه.

فالمتخصص في علم الأرض (الجيولوجيا) سيانتبه إلى ما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلْبَالَ

أَوْتَادًا ﴾ (النبا: ٧) من معان لم يلتفت غيره إليها.

والمتخصص في علم البحار سينتبه إلى معان في قوله سبحانه : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .
بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَّا يَبْقِيَانِ ﴾ (الرحمن : ١٩ - ٢٠) مما لم يلتفت إليه سواه .

والمتخصص في العلوم الرياضية سيجد في قوله تعالى : ﴿ يُدِيرُ الْأُمُورَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة : ٥) ما لا يجد غيره .
وكذلك المتخصص في علم الأجنة يجد في قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون :
١٢ - ١٤) ما لا يجده عالم آخر ، ناهيك بمن ليس من المتخصصين في هذه العلوم .

وهذا ما لا ينبغي أن يختلف فيه .

٣ - شروط استخدام العلوم في التفسير :

ولا بد أن ننبه هنا على الشروط التي يجب أن تراعى حين تستخدم العلوم الكونية
في التفسير وخدمة القرآن .

التعويل على الحقائق لا الفرضيات :

أ - أولها : أن نستخدم من نتائج العلوم ما استقر عند أهله ، وغدا حقيقة علمية ،
يرجع إليها ، ويعول عليها ، ولا نعول على الفرضيات والنظريات التي لم تثبت
دعائمها ، حتى لا نعرض فهمنا للقرآن للتقلب مع هذه الفرضيات . فليكن اعتمادنا على
الحقائق المقررة .

ولا يقال : إن العلم ليس فيه حقائق مقررة ثابتة إلى الأبد . فكم من قضايا علمية
كانت يوماً ما - بل ظلت قروناً وقروناً - حقائق مقدسة ، ثم ذهبت قدسياتها العلمية ،
وأثبت التطور العلمي عكسها . وهذا صحيح ومعروف ، ولكن حسبنا الثبات النسبي
للحقائق . فهذا هو الذي في مقدورنا بوصفنا بشراً . وقد قيل في تعريف التفسير : هو
بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية .

تجنب التكلف في فهم النص :

ب - وثاني هذه الشروط : ألا نتمحل ولا نتعسف ولا نتكلف في حمل النص على
المعنى الذي نريد استنباطه ، إنما نأخذ من المعاني ما ساعدت عليه اللغة ، واحتملته
العبارة دون قسر ، وقبله سباق النص وسياقه .

ومن مراعاة اللغة هنا: ألا نحمل ألفاظ القرآن على المعاني المستحدثة في عصرنا، والتي لم تكن مرادة من النص يقيناً، مثل حمل كلمة (ذرة) على المعنى الاصطلاحي في علم الفيزياء، ونحوها.

ومن هنا رفض المحققون من علماء الشريعة، ومن علماء الطبيعة، ما قاله بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَمْشُرُ الْيَمِينَ وَالْإِيسَىٰ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأِذْنِ رَبِّكُمْ﴾ (الرحمن: ٣٣) إن السلطان هنا هو سلطان العلم، وإن هذا يشير إلى غزو الفضاء والصعود إلى القمر.. الخ. لأن سياق الآية الكريمة يبين أن هذا التحدي في الآخرة، كما يدل على ذلك ما قبلها وما بعدها، وأنهم لا يستطيعون الخروج من ملك الله تعالى.

وأين يهربون من ملكه تعالى، وهو الذي له ملك السموات والأرض؟ ولو افترضنا أن الصعود إلى القمر، نفوذ من أقطار الأرض، فهل نفذوا من أقطار السموات؟ هذا مع أن الذين صعدوا إلى القمر، أو داروا في الفضاء لا يزالون على صلة بالأرض، فهي التي تحركهم وتراقبهم، وتعطيهم التنبهات، وترشدهم إلى إصلاح الخلل إن حدث، كما نقرأ ونعلم.

تجنب اتهام الأمة كلها بالجهل:

ج - ألا يحمل هذا الرأي أو التفسير العلمي اتهاماً للأمة كلها طوال تاريخها كله - وفيها خير القرون: من الصحابة والتابعين والأتباع والأئمة الكبار في كل فن - بأنها لم تفهم القرآن، إلى أن جاء هذا العالم في زماننا، فعلمها ما كانت تجهل من كتاب ربها، فمقتضى هذا الكلام: أن الله أنزل على الناس كتاباً لم يفهموه، ولم يعرفوا مراد منزله منه. مع أنه تعالى وصفه بأنه «كتاب مبين» وأنه «نور» وأنه «هدى للناس».

ولهذا ينبغي أن نقبل من هذا اللون من التفسير: ما كان إضافة إلى القديم، وليس إلغاء كلياً له، فلا مانع من إضافة فهم جديد للآية، أو جزء الآية، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا تنفذ كنوزه وأسراره. والله تعالى يفتح على عباده في فهمه ما يشاء لمن يشاء.

تجاوزات مرفوضة عند علماء الشرع وعلماء الكون:

ولاريب أن هناك من الباحثين في هذه القضايا - خصوصاً من علماء الكون - من لم يراعوا هذه الشروط، وتكلفوا وقحلوا، فانتهوا إلى نتائج رفضها المعتدلون من علماء الكون، وعلماء الشرع جميعاً.

من ذلك ما ذكره العالم المتمكن أ.د. عبد الحافظ حلمي محمد^(١٧) في دراسة له عن (العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم)^(١٨) من شرود بعض الباحثين عن المنهج السليم، (فمن ذلك أنه عندما ركب الإنسان أول مركب في الفضاء، خفّ من يقول لنا: إن هذه المركب هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس (إشارة إلى الآية ٨٢ من سورة النمل)، ثم تبعه من يقولون: بل إن هذا النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان (إشارة إلى الآية ٣٣ من سورة الرحمن)، وأن هذا السلطان هو سلطان العلم! وغني عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعاً! فالمنزلق جاء هنا من عدم الإمام بما جاء في كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة، أو حتى من عدم الحس الفطري بالمعنى البلاغي لهذا التحدي الشديد للإنس والجن أن يخرجوا من ملك الله ويفروا من قضائه (والى أين؟!)، هذا فضلاً عن أن العلم لم يزعم على الإطلاق أن تلك (القفزات القصار) التي قفزها الإنسان خارج نطاق جاذبية الأرض، تعتبر خروجاً من أي شيء إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يحد. وكأني بمن يقول بهذا يعني أن الإنس والجن قد قبلوا التحدي ونجحوا في الانتصار عليه! وقد بلغ من خلاصة المعنى أن تقبله بعض علماء الشريعة، ولكنني أشهد أنه بالحوار المقنع قد عدل عن هذا القول كثيرون.

وشبيه بهذا قول القائلين بأن ذكر الذرة وما هو أصغر منها (إشارة إلى الآية ١٦ من سورة يونس، ومواضع أخرى) دليل من القرآن الكريم على أن الذرة - بمعناها الفيزيائي الكيميائي الاصطلاحي الحديث - ليست أصغر الجسيمات في تكوين المادة، وأن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا بكذا مئات من السنين (واعجبوا معي إلى هذا الحرص الشديد على وضع القرآن الكريم والعلوم الحديثة في سباق!). وهنا أيضاً يتضح أن الفهم الخاطيء لمعاني الألفاظ (وأبرز معنى للفظ الذرة في اللغة هو الهباءة) وللمعنى البياني المقصود وهو التصغير والتهوين والتقليل، كالقطمير وحبّة الخردل والورقة، في مواضع أخرى. هذا فضلاً عن إدراك أن لفظ الذرة بالمعنى الاصطلاحي الحديث، لم يدخل اللغة العربية إلا في وقت متأخر، وعلى سبيل ترجمة غير حرفية ولا دقيقة (وإن شاعت وكانت مقبولة لطيفة) للمصطلح الأجنبي «Atom» أي غير المنقسم أو غير القابل للانقسام.

وثمة مثال ثالث لا يقل غرابة ومجافاة للحقيقة عن سابقه، وهو قول من رأوا بأن المقصود من انقاص الله تعالى الأرض من أطرافها (الرعد: ٤١، الأنبياء: ٤٤) إشارة

(١٧) أستاذ العلوم البيولوجية في مصر والكويت، وعميد كلية العلوم سابقاً بمصر، وأحد كبار المتخصصين المعروفين.

(١٨) نشرتها مجلة (عالم الفكر) في الكويت: العدد الرابع، المجلد الثاني عشر سنة ١٩٨٢ ص ٦١-١٥٢.

إلى النقصان البطيء المستمر للمحور الطولي للأرض نتيجة دورانها كما تدل عليه القياسات العلمية، وأن هذا أيضاً (سبق) و (إعجاز علمي) للقرآن الكريم. والعجيب أن هذا الرأي يتقبله بعض المتحفظين، مع أنه مخالف تماماً للسياق القرآني في الموضوعين، إذ أنه إشارة إلى انتفاص أرض الكفار بما يفتحه الله للمؤمنين منها نشرأ لدعوة الحق، وقراءة الآيات السابقة واللاحقة مباشرة للآيتين المشار إليهما كفيلان بالإقناع لمن يريد أن يقتنع!

هذا فضلاً عن أن هذا الرأي مثال لتأويل حديث يحتم أن المعنى الصحيح للآيتين الكريميتين ظل خافياً على المسلمين هذه القرون الطوال منذ نزول القرآن. وليس من البلاغة في شيء الإشارة إلى أمر خاف تماماً عن المخاطبين، بل إنه حتى في هذا الزمان لا تكشف عنه إلا القياسات العلمية، ولا شأن له واضحاً في حياة البشر، وليس فيه عبرة لمن يعتبر.

وأعتقد أن في هذه الأمثلة الثلاثة الغناء عن ذكر كثير غيرها (١٩).

٤ - مجالات لاستخدام العلوم الكونية في التفسير لا ينبغي الخلاف عليها:

وأريد أن أبين هنا أن هناك مجالات لاستخدام العلوم الكونية في تفسير القرآن لا ينبغي أن يكون فيها خلاف بين المثبتين والنافين في هذه القضية:

أ - تعميق مدلول النص:

من هذه المجالات التي لا يختلف عليها اثنان: تعميق مدلول النص القرآني، وتوسيع فهمه ومداه للإنسان المعاصر، وذلك بما تقدمه العلوم الكونية من بيانات ومعلومات تزيدنا معرفة بمفهوم الآية، وتوضحه بالشواهد والأمثلة، التي توافرت في ضوء العلم الحديث.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّجَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۚ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٦٨، ٦٩).

إن كل من يقرأ هاتين الآيتين يفهم معناهما بإجمال، ولا يخفي مغزاهما عليه. والمفسرون القدامى فسروهما بمقتضى ما علموه في زمانهم، وأحسنوا جزاهم الله خيراً.

ولكن المتخصص في علم الحيوان، أو علم الحشرات خاصة أو علم النحل على وجه

(١٩) البحث المذكور ص ٧٠، ٧١.

أخص، يرى في الآية ما لا يراه القارىء العادي، ويستنبط من ألفاظها من المعاني والأفكار والمقاصد ما لا يخطر لأمثالنا ببال. وكذلك المتخصص في علم الأغذية أو علم العسل أو الطب بالأعشاب أو الأدوية الطبيعية، يأخذ من قوله تعالى: «فيه شفاء للناس» ما لا نستطيع نحن أن نستخرجه من العبارة.

ولهذا وجدنا رسائل وأطروحات علمية تقدم للجامعات حول هذه الآية، أو الآيتين، ورأينا بحثاً ودراسات نشرت عنهما.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (لقمان: ١٠) ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبا: ٧) نفهم نحن معناها إذا قرأناها الفهم الإجمالي، وكذلك مر عليها المفسرون الأولون. ولكن العالم المتخصص في علوم الأرض اليوم، يرى فيها ما لا نراه نحن، ويقدم لنا من مهمة الجبال وفائدتها في إرساء الأرض، ومنعها من الميدان: ما يجلي معناها أعظم التجلية، ويشرحها أبلغ الشرح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (المؤمنون: ١٨) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ ﴾ (القمر ٤٩) وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ نَقْدِيرٍ ﴾ (الفرقان: ٢) ونحوها من الآيات. نقرأها نحن فنفهمها فهماً إجمالياً فطرياً، وكذلك فعل المفسرون قديماً، ولكن العلم الكوني الحديث بين لنا من عجائب هذا التقدير في الكون ودقائقه، ما يبهر العقول، وينير القلوب، ويجلي أمام أبصارنا وبصائرنا: واسع علم الله تعالى، وبالغ حكمته، وعظيم قدرته، ورائع تدبيره، كما قرأنا ذلك في كتاب «كريسي موريسون» الذي ترجم بعنوان (العلم يدعو للإيمان). فحجم الكرة الأرضية، وموقعها من الشمس، وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس، وموقع القمر منها، وكمية الماء، والغازات فيها.. الخ، لو كانت على غير ما هي عليه، أو اختل ناموسها قليلاً، لهلكت الحياة على ظهر الأرض، أو ما قامت أصلاً.

ومثل ذلك: ما كشفه العلم من أسرار قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عَظْمُهُ. بِلِقْدِيرٍ عَلِيمٍ أَنْ سُويَ بَنَانُهُ ﴾ (القيامة: ٣، ٤) ولماذا ذكر البنان خاصة دون غيره من الأعضاء؟ فلقد بين لنا العلم الحديث ما يتميز به جلد البنان من خواص بحيث لا يتشابهه بنانان لشخصين وإن كانا شقيقين، أو توأمين، وعلى أساس هذا التمايز قام ما عرف باسم (البصمة) وأسست عليه إدارات (تحقيق الشخصية).

وهذا ما فهمه المعتدلون من علماء الكونيات، الذين عرفوا ما هو المطلوب منهم في خدمة تفسير القرآن، فالتزموه ولم يحدوا عنه..

يقول أحدهم (٢٠) شكر الله له:

ما المطلوب منا إذن؟ المطلوب عندي هو أننا إذا قرأنا، مثلاً، قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧)، استجبنا إلى هذه الدعوة الربانية بما لا ينافي الفطرة السليمة أو يعارض تفسيراً تقليدياً، وأظهرنا ما لاتزال تكشفه الدراسات الحديثة عن معجزات بيولوجية رائعة في ذلك المخلوق الفريد، الذي نستطيع أن نشيت أنه خص بالذكر، من بين ما لا يحصى من مخلوقات الله، نموذجاً يتدبر في دراسته المتدبرون، وأنه ليس صحيحاً ما يقوله البعض من أن الإبل ذكرت لمجرد مناسبتها لخطاب البدو والأعراب. فالمعجز حقاً أن هذا صحيح، ولكنه ليس الحق كله، فالجمل - والجمل بالذات - هو الآن نموذج فريد تشير إليه كتب علم الأحياء الحديثة في أوروبا وأميركا!

ومطلوب أيضاً أنه إذا ذكر لحم الخنزير بين اللحوم المحرمة، وجب علينا - بعد الامتثال والطاعة لحكم التحريم - أن نلتفت إلى أن التحريم هنا هو تحريم مُعَلَّل (٢١)، وإلى أن لحم الخنزير ينفرد من بين الأنواع الأخرى من اللحوم المذكورة بأنه حرام لذاته، أي لعله مستقرة فيه أو غالبية اللصوق به، لا لعله عارضة عليه كما هي الحال في أنواع اللحوم الأخرى المحرمة، أي أنه ينبغي علينا أن نبحث هذه العلة بحثاً علمياً دقيقاً، لا أن نردد ما تتناقله بعض التفاسير مما يسهل دحضه وتفنيده.

وينبغي علينا، أيضاً، أن نعمق فهمنا في قوله تعالى، في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، فنبين البلاغة الكاملة في استعمال اللفظ «جعلنا من» ونضيف إلى ما هو معروف متناقل ما يزيده تأييداً. وكذلك عن [العظم الحي] و [النار من الشجر الأخضر] في ختام سورة يس، وخروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي.. الخ. وجدير بنا أن نشرح للناس عظمة القسم بمواقع النجوم، والإعجاز في تنوع الخلائق كما ورد في سورة فاطر، وإيلاج الليل في النهار، وسبح الأجرام السماوية في أفلاكها، وكيف يمسك الرحمن الطيور في جو السماء، وكيف تتفجر الأنهار من الحجارة، وكيف يكون شرب الهيم... الخ.

ومطلوب منا أيضاً أن نجتهد في تحديد المسميات الواردة في القرآن الكريم، كحوت يونس والسدر واليقطين والطلح والفوم والمن والسلوى، فضلاً عن أن نزيد الناس معرفة بمناسبة ذكر الأعناب والتين والزيتون والرطب، وتوضيح معاني هذه المفردات خدمة كبرى اجتهد فيها السابقون، وبذلتها الأمم الأخرى لكتبهم، وأذكر أن الأستاذ

(٢٠) هو. أ. د. عبد الحافظ حلمي محمد في دراسته التي أشرنا إليها ص ٦٧.

(٢١) يشير إلى قوله تعالى في بيان المحرمات في سورة الأنعام ﴿ أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ الأنعام: ١٤٥.

الدكتور عبد العزيز كامل قد دعا في جامعة الكويت منذ سنوات إلى تصنيف معجم عصري شامل يشمل مفردات من قبيل ما ذكرت، وكذلك مواقع البلدان وأسماء الأشخاص والأقوام السابقين، وما إلى ذلك مما ذكر في القرآن (أو كتب التفسير).

وجميع ما ذكرت ليس فيه تكلف أو افتعال أو تهجم بالكلام في تفسير كتاب الله العزيز بغير علم، وليس فيه معارضة لتفسير سلفي معتمد، برأي عصري مبتدع. وهذا شرط أساسي. أهـ.

ب - تصحيح معلومات بعض المفسرين القدامى:

ومن المجالات التي لا خلاف عليها هنا للعلوم الكونية: القيام بتصحيح بعض المعلومات الخاطئة التي اعتمد عليها بعض المفسرين القدامى، وأخرجوا بها بعض آيات القرآن الكريم عن ظاهرها البين، محاولين تأويلها، وإخراجها عن معناها المتبادر منها، لتوافق ما هو مألوف عندهم، ومتفق مع معارفهم.

من ذلك : قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ وَمِن مَّا يَلَيْنَاهُ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذْ يَأْتِيَنَّاهُمْ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٢٩) فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: «وما بث فيها من دابة» يرجع إلى الأرض وحدها، وإنما ذكر ضمير التثنية (فيهما) لأن ما في أحد الشيتين يصدق أنه فيهما في الجملة! (٢٢).

وهذا بلا شك خروج عن الظاهر المتبادر، بلا بينة. وما دفعهم إلى هذا الاعتقاد أن العوالم العلوية [السموات] لا توجد فيها كائنات حية تدب على الأرض خصوصاً مع قوله تعالى عن الأرض: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة: ١٦٤) فإنه يدل - كما قالوا - على اختصاص الدواب بالأرض. ولكن العلم الحديث اليوم يتصور وجود حياة في الكواكب الأخرى، ويجهد جهده في محاولة اكتشافها، وينبغي أن نقول لهم: إن هذا هو ظاهر ما يقرره القرآن.

ولا يجوز أن يقال: إن المراد بقوله [من دابة]: الملائكة التي تسكن السموات كما زعم بعض المفسرين، فإن هذه لا تدب، بل تطير، كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ الْمَلَكِ كَرُمًا أُوتِيَ آجِنًا حَقْمًا مِّنْهُ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ ﴾ (فاطر: ١)

كما أن آية سورة النحل ترد على ذلك بوضوح، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ٤٩) فعطف الملائكة على ما يسجد من دابة، والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

(٢٢) نقله الألوسي في تفسير (روح المعاني) ج٤١/٢٥٥ ورد عليه.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ . يَنْهَابُ الرِّيحُ لَا يَلْتَمِسَانِ . . . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن : ١٩ - ٢٢)

فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » من باب حذف المضاف، والتقدير: يخرج من أحدهما، أو يقال: إنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد، جاز أن يقال: يخرج منهما، وقد ينسب إلى الاثنين ما هو لأحدهما. (٢٣) لأن اللؤلؤ والمرجان، يخرجان من أحد البحرين، وهو البحر المالح، وليس البحر العذب، وحملوا هذه الآيات على الآية الأخرى في سورة الفرقان، حيث يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (الفرقان : ٥٣) .

ولا ضرورة لهذا الحمل فلكل آية مجالها، فأية الفرقان فيما نصت عليه من البحر العذب الفرات والبحر المالح الأجاج. أما آيات الرحمن، فظاهرها يتحدث عن بحرين من نوع واحد، وهو المالح، فلا عجب أن يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، حسب سنن الله تعالى. فإذا كانت آية الفرقان تدل على البرزخ أو الحاجز الإلهي الذي جعله الله بين الأنهار العذبة والبحار بحيث بقي لكل منهما خواصه، كما بين النيل والبحر المتوسط عند دمياط ورشيد في مصر، فإن آيات الرحمن دلت على أن بين البحار المملحة نفسها، بعضها وبعض، حواجز من صنع الله، فلكل بحر منها كثافته ودرجة حرارته، وحيواناته المائية، وتياراته البحرية، حتى إن أسماك وحيوانات هذا البحر لا تنتقل إلى البحر الآخر رغم أن الطريق مفتوح لها.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٩) فقد قال بعض المفسرين: هذه الكلية أغلبية، وليست عامة ولا مطلقة، كما هو ظاهر لفظ الآية الكريمة (من كل شيء) وقال بعضهم: (من كل شيء) أي من كل جنس من الحيوان نوعين: ذكر وأنثى (٢٤). فخصوها بأجناس الحيوان.

وإنما قالوا ذلك، لأن الذين يعلمونه أن الازدواج ظاهر في الإنسان والحيوان، وبعض أنواع النبات كالنخيل، ولكن لم يعرف في جميع أنواع النباتات، ولا في الجمادات.

حتى جاء العلم الحديث فكشف النقاب عن هذه الحقيقة، وأثبت لنا أن جميع النباتات، بل جميع المخلوقات قائمة على قاعدة (الزوجية)، حتى (الذرة) تحتوي على شحنة كهربائية موجبة، وشحنة كهربائية سالبة. وحق قول الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس : ٣٦) .

(٢٣) نقل ذلك الألويسي ج ٢٧/١٠٦، ١٠٧.

(٢٤) انظر: الألويسي ج ٢٧/١٧، ١٨.

ج - تقريب الحقائق الدينية لعقول البشر:

ومن المجالات التي لا خلاف على استخدام العلم فيها لخدمة القرآن خاصة، والدين عامة: تقريب الحقائق الدينية والغيبية التي جاء بها القرآن إلى عقول البشر، التي قد تستبعد هذه الأشياء، أو تكابر فيها.

ولقد عرضت لهذه القضية من قديم في كتابي (ثقافة الداعية) في فصل (الثقافة العلمية للداعية وما يمكن أن يؤديه العلم من دور. وكان مما ذكرته من وظائف العلم في عصرنا: أن من الحقائق العلمية ما يمكن استخدامه في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه ونصرة قضاياه، والدود عنه، بدفع شبهات خصومه ومفتريات أعدائه. وذلك يبدو في عدة صور منها:

أ - تقريب بعض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر وتأييدها بمنطق العلم التجريبي نفسه، حتى إن أولى قضايا الدين وكبرائها، وهي: إثبات وجود الله تعالى، يستطيع هذا العلم أن يقوم فيها بدور بناء، في مواجهة الماديين والملاحدة، فيقيم الأدلة ويدحض الشبهات، بوساطة فروعه المتعددة من رياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء، وجيولوجيا وأحياء وطب وغيرها. كما رأينا ذلك في مثل كتاب أر. كريسي موريسون (الإنسان لا يقوم وحده) المترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) لثلاثين عالماً أميركياً معاصراً، وكتاب (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي.

ورأينا مفكري المسلمين ينتفعون بذلك في نصره العقائد الدينية كما في كتاب (قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة) للشيخ نديم الجسر، وكتاب (الإسلام يتحدى) للمفكر الهندي وحيد الدين خان، وقد جعل له مراجعه ومقدمه د. عبد الصبور شاهين عنواناً فرعياً هو (مدخل علمي للإيمان).

لقد كان المشتغلون بالفلسفة والكلام قديماً يستبعدون - بل ينفون - أن يرى الإنسان عمله في الآخرة بعد أن فرغ منه في الدنيا، لأن الأعمال أعراض، والعرض لا يبقى زمانين وعلى هذا يؤولون مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (الزلزلة: ٦). وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَضَرًا وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ (آل عمران: ٣٠) وما شابهها من آيات، بأن المراد بالأعمال جزاؤها، أي ليروا جزاء أعمالهم! فجاء العلم الحديث يثبت أن أقوال الإنسان وأعماله كلها موجودة في الفضاء، وأنها يمكن أن تسجل وتصور وتبقى، ولو بعد حدوثها بزمن طويل، وإن لم يوفق الإنسان لاختراع آلة تقوم بهذه المهمة حتى الآن، ولكن العلم لا ينفي إمكانها.

ومعنى هذا أن كل إنسان يمكن أن يواجه بقوله وعمله طيلة حياته في صورة أشبه ما تكون بـ (فيلم) تسجيلي ناطق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبهذا يرى عمله حقيقة لا مجازاً.

ب - ويستطيع العلم بمكتشفاته ومقرراته أن يؤيد كثيراً من الأحكام الشرعية ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس، ودرء المفسد عنهم، وبذلك يزداد الذين آمنوا إيماناً، ويضعف جانب المرتابين والمشككين في كمال الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه (أم الخبائث الخمر على شاربها ومدمنيها من أضرار جسيمة على الأفراد، وعلى الأسر، وعلى المجتمعات، مادياً ومعنوياً، وبهذا تتبين حكمة الإسلام في تحريم الخمر، ولعن كل من شارك في صنعها أو الاتجار بها أو تقديمها من قريب أو بعيد.

ومثل ذلك المخدرات والتدخين، وكل ما يعتاد الناس تناوله من مأكول أو مشروب أو مشموم أو غيره، يضر متناوله عاجلاً أو آجلاً، فضلاً عن الأضرار الأخلاقية والنفسية والاجتماعية الأخرى.

وكذلك ما يسببه انتشار الزنى من أمراض تناسلية وغيرها للرجال والنساء، خصوصاً ما عرف اليوم باسم (الإيدز) بالإضافة إلى آثاره السيئة على الأنساب والأخلاق والأسر والمجتمع كله. مما يؤكد معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢).

وتستطيع علوم الأحياء، ووظائف الأعضاء، والطب وغيرها، أن تبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى - وبعبارة أخرى: بين الرجل والمرأة - وأن هذا التفاوت لم يكن عبثاً، وأن تجاهله في التشريع والتربية والتعليم والتوجيه، لا يعقب إلا أسوأ النتائج، وأن من الخير لكلا الجنسين، وللجماعة كلها: أن يكون لكل منهما عمله اللائق به، وثقافته الملائمة لوظيفته في الحياة، وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين، الذي هو منطق الفطرة السليمة.

وحسبي هنا أن أنقل الكلمات التالية عن رجل يعد من أقطاب العلم التجريبي في عصرنا وهو الدكتور ألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) يقول:

(إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية وعن وجود الرحم والحمل، أو عن اختلاف طريقة التربية. وإنما تنشأ عن سبب جد عميق، وهو تأثير العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية. وإن جهل هذه

الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل إن كلا الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة، وأن يمارسوا أعمالاً متماثلة. والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل، فكل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية - ولا سيما الجهاز العصبي - وإن القوانين العضوية (الفزيولوجية) كقوانين العالم الفلكي لا سبيل إلى خرقها! ومن المستحيل أن نستبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي، فالنساء يجب أن ينمين استعدادهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة دون أن يحاولن تقليد الذكور، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال، فلا ينبغي أن يتخلين عنه).
وقال أيضاً:

(يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة إلى المرأة من أن هذه الوظيفة ضرورة لكمال نموها، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة، ولا مثل أعلى واحد، وعلى المرين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى، وما بين دوريهما الطبيعيين، فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتمدن). ١. هـ (٢٥).

كلمة منصفة للعقاد:

وأختم هذا البحث بكلمة معتدلة للكاتب المعروف الأستاذ عباس العقاد، قالها بمناسبة الحديث عن (الإنسان) في كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) معقباً على التعريف الجديد الذي زيد في العصر الأخير عن حقيقة الإنسان، وهو تعريف العلماء التشويين القائلين بمذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء، ومعظمهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان راقٍ، فيضعون هذا التعريف مقابلاً لقول القائلين: إن الإنسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء.

ما قول المسلم في هذا المذهب الجديد؟ أترأه يصدقه؟ أترأه يكذبه؟ وهل في نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير الموافقة والقبول؟ وهل في نصوص دينه ما يفسره تفسيراً يوجب عليه رفضه والإعراض عنه؟

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (حقائق الإسلام):

(نحن لا نحب أن نقحم الكتاب في تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس

(٢٥) انظر: ثقافة الداعية للمؤلف ص ١٣٢ - ١٣٦ مع تصرف قليل.

ويرفضها آخرون، ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة إلى العلم فهو ثبوت إلى حين، لا يلبث أن يتطرق إليه الشك، ويتحيفه التعديل والتصحيح، وقريباً رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر، وأن الصغار منها تعد بالمئات، ولا يحصرها الإحصاء! فليس من الصواب إذن أن نقحم العقيدة في تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول في علمها، ولا يصح أن نتوقف عليها الأصول، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث في العلم وقبول الرأي الذي تأتي به فتوح الكشف والاستنباط. وعلى هذه السنة يرجع المسلم إلى آيات كتابه وأحاديث نبيه فلا يرى فيها مانعاً يمنع أن يدرس التطور ويسترسل في مباحثه العلمية إلى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نُورًا مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ﴾ (السجدة: ٦-٩) وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢).

وإذا اعتقد المسلم أن خلق الإنسان الأول مبدوء من الأرض، وأنه مخلوق من سلالة أرضية، فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن نتيجته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع المتفق عليه، فما يكون في هذه النتيجة نقض لعقيدة المسلم في أصل الإنسان: أنه جسد من الأرض وروح من عند الله، وليس في وسع العالم النشوئي أن يدحض هذه العقيدة برأي قاطع أحق منها بالتطبيق والإيمان). أ. هـ (٢٦).

بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن

وأود أن أشير هنا إلى قضية لها أهميتها ودالاتها، وهي قضية ما سمي (الإعجاز العلمي) للقرآن، وعلاقته بـ «التفسير العلمي»، فإن هناك خلطاً بينهما، حتى كاد بعض الناس يجعل كل تفسير علمي إعجازاً علمياً. وهذا ليس بصحيح.

إن مجال التفسير العلمي ما ذكرناه في الصحائف السابقة، وهو مجال فسيح. أما مجال الإعجاز العلمي، فهو أضيق وأضيق من ذلك بكثير.

وكثير من القضايا التي يذكرها إخواننا المسرفون في الحماس للإعجاز العلمي، نراها قابلة للجدل، ولا تقبل عند الخصم.

فإنك إذا قلت له: من علم محمداً الأمي في أمة أمية: أن الحديد أنزل من السماء؟

(٢٦) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١٠٠، ١٠١.

كما يقوله إخواننا الكونيون.. فقد يقول لك قائلهم: وما يدريك أن القرآن قصد ذلك حين قال هذه الجملة: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ (الحديد: ٢٥) فقد يكون المراد: أننا خلقناه بتدبير علوي سماوي، كما في نظائره في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَنِينَةً أَرْوِجُ ﴾ (الزمر: ٦) وقوله ﴿ يَبْقَىٰ آدَمُ فَذُرِّيَّتُهُ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِمْ وَمَن يَخْشَ اللَّهَ لَأَجْرِكَ أَتَىٰهُ مِنْ لَدُنْهُ وَسِعَتْ أَرْضُهُ وَهُوَ يُعْتَدُّ لَكَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأعراف: ٢٦).

وهذا ما قلته من قديم، ولأزال أقوله لإخواننا العلميين المعنيين بهذا اللون من الإعجاز، مثل صديقنا الشيخ عبد المجيد الزنداني، الذي عني بأبلغ العناية بهذا الإعجاز، وله فيه بحوث معجبة، وجهود طيبة، والذي سعى ووفق لإنشاء (هيئة علمية عالمية لإعجاز القرآن) في رابطة العالم الإسلامي، وكذلك صديقنا أ. د زغلول النجار، أستاذ علوم الأرض، الذي له باع رحب ومجهود رائع في هذا الميدان.

ولهذا يجب أن يكون عمدتنا في إثبات هذا الإعجاز، هو القضايا الواضحة المحكمة، التي لا مجال للشك أو التشكيك في سبق القرآن بها، مثل أطوار الجنين، المذكورة في سورة المؤمنين، وسورة الحج، ومثل قاعدة (الزوجية) في جميع المخلوقات ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (الذاريات: ٤٩)، ومثل تقرير أن الماء أصل الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

ثم إن الإعجاز لا بد يسبقه تحدد واضح، ودعوة إلى المعارضة بمثل ما يتحدى به، وأن تتوافر الدواعي إلى قبول التحدي، وتنتفي الموانع عن المعارضة. ثم يعجز المعارضون جميعاً.

وفي الإعجاز العلمي لم يحدث هذا التحدي، إذ التحدي القديم كان بالبيان والبلاغة والنظم، كما هو معروف، وإن وجدت أشياء أخرى أضيفت إلى ذلك، مثل الإخبار بالغيوب، وما تضمنه القرآن من هداية وإصلاح وتشريع، ولكن الأساس هو التحدي البياني.

الإعجاز العلمي في حقيقته إعجاز بياني :

بل أقول: إن الذي يتبين لي في هذه القضية المهمة، هو أن ما يسمى الآن (الإعجاز العلمي) هو عند التأمل والتحليل: لون من (الإعجاز البياني) للقرآن، فالإعجاز هنا يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات، أو أجزاء الآيات، التي تتناول هذه الشؤون التي لها صلة بالعلم، أو بالآفاق والأنفس، كما أشار إلى ذلك القرآن حين قال: ﴿ سَتَرْنَاهُمْ فِي آفَاقِهِمْ وَفِي أُنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

ذلك أن العبارة القرآنية أو الجملة القرآنية، قد جعل الله فيها من المرونة والسعة

بحيث يفهمها العقل العربي العادي في عصر نزول القرآن، ويجد فيها المسلم ما يشيع فكره ووجدانه معاً، بالفهم الفطري السهل اليسر لكل قارئ للقرآن. ومع هذا أودع الله الجملة القرآنية من السعة والخصوبة ما يتسع لما يكشف عنه الزمن من حقائق، وما يبلغه العلم من تطور وتقدم، كما نشاهد في عصرنا.

ولو كان القرآن كتاباً من تصنيف البشر وتأليف عقولهم، ما كان يمكن لعباراته أن تتسع لمختلف الأزمان، وتطورات الإنسان. بل كان مرور الزمن يكشف عن كثير من القضايا التي ذكرت في الكتاب على أنها حقائق مسلمة، فإذا هي أوهام مرفوضة.

تحفظ المعتدلين من العلميين :

وتحفظي علي التوسع في الإعجاز العلمي يشاركني فيه بعض أساتذة العلوم الكبار، من المتخصصين في العلم، والملتزمين.

من ذلك ما قاله أ. د عبد الحافظ حلمي في بحثه الذي أشرنا إليه من قبل:

(وثمة قضية أخرى خطيرة لا بد من إثارتها، فلقد شاع وذاع بين كثير ممن يجمعون بين تفسير القرآن الكريم وقضايا العلوم الحديثة: مسارعتهم في كل موضع إلى القول بأن القرآن الكريم قد سبق في هذا أو ذاك من تلك القضايا. وهذا منزلق خطير له محاذيره، فإنه غالباً ما يكون قولاً جزافاً غير مستند على أساس علمي أو تاريخي. فالأمر الذي يكون موضع التأويل لا يعدو في الغالب أن يكون إشارة لطيفة في القرآن الكريم لظاهرة كونية طبيعية - هذا إذا صح تخريج المؤول لمعناها - وليس من الصواب في شيء الزج بتلك الإشارة الكريمة إلى تحميلها فوق كل ما تحتمله، ووضعها موضع التسابق مع أي مبحث علمي مفصل. هذا فضلاً عن أن المؤول يستحضر بعض فصول التاريخ العلمي الحديثة، منذ ما سمي عصر النهضة وما بعده، غير ملتفت إلى أن المعارف البشرية كانت في عهد القرآن متضمنة ما اهتمت إليه الأمم الأولى في الحضارات السابقة، والكلام في السبق التاريخي يفتح باباً للجدل ليس من اليسير في كثير من الأحيان الانتهاء فيه برأي. ولنتأمل - على سبيل القياس - المعارك الجدلية الكثيرة التي دارت حول تحديد ما حققه المسلمون في إبان نهضتهم الكبرى في عصر حضارتهم الذهبي، ومحاولة المكابرين رده كله أو جله إلى الإغريق.

فإذا جاز، مثلاً، أن نشرح للناس ما وصل إليه العلم عن القوى التي تجذب الأجرام السماوية بعضها إلى بعض ثم تحفظها متباعدة عن بعضها البعض دون أن تتداعى، وأن نقول إن هذه القوى كأنها المعنية بالعمد التي لا نراها في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢)، فإنه لا يجوز أن نقول إن القرآن الكريم

قد سبق إلى ذكر قانون الجذب العام في الرياضة الفلكية النيوتونية. كذلك إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دَائِبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يُطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ...﴾ (الأنعام: ٣٨) جاز لنا أن نقول: (تنظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية وطبائع معينة. وفي الآية الكريمة تنبيه إلى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها، فكما أن الإنسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء. هذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق دراسة نوع منها) (المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ١٩٧٨: ص ١٧٨). ولكن لا يجوز أن نعلق قائلين بأن هذا يدل على أن القرآن الكريم قد سبق كارلوس لينبوس في وضع علم التصنيف. فالآية أولاً ليس فيها تصنيف. لا وفقاً لنظام لينبوس ولا غيره من المصنفين، ثم إن محاولات التصنيف ضاربة في التاريخ قبل لينبوس وإن كان هو واضع أسس المنهاج الذي يتبعه البيولوجيون حتى وقتنا الحاضر.

ومن قبيل هذا الذي قيل عن سبق القرآن الكريم إلى قوانين الجاذبية وعلم التصنيف، قيل أيضاً عن انشطار الذرة وارتداد الفضاء، وقصر المحور القطبي للأرض، في الأمثلة الثلاثة التي سبق ذكرها، وفي كثير غيرها مما يضيق المجال عن حصره وذكره. ولكن لعل أعجب ما قرأت هو رأي كاتب فاضل من علماء الدين يقول: إن قوله تعالى (وإذا العشار عطلت) من سورة التكويد تنبؤ باختراع وسائل الانتقال الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات واستخدامها بدلاً من الإبل (والعشار من النوق ونحوها ما مضى على حملها عشرة أشهر) مع أن السياق كله في تعداد أحداث من أحداث يوم القيامة، ومع بعد المعنى المذكور لأكثر من سبب!

إن القرآن الكريم كتاب منزل من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه، بل إنه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار، وفاطر تلك النواميس. فمن العبث أن نعقد سباقاً لا محل ولا معنى له بين كتاب الله العزيز - تنزهت كلماته - وبين علوم البشر، فهي حتى وإن بلغت في هذا الزمان شأنًا عظيمًا ليست إلا لمحات من علم الله الشامل الكامل.

إن الأقوال الواهية عن (السبق العلمي) للقرآن الكريم لن تقنع غير المؤمنين بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله، وليس من قول محمد النبي الأمي، صلوات الله وسلامه عليه، فإننا إذا أردنا أن نقنع غير المؤمنين بهذا وجب علينا أن نلجأ إلى أسلوب أكثر إحكاماً.

إن موريس بوكاي، الطبيب والباحث الفرنسي، يقول في كتابه عن (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة): (.. لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص

بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقتها تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً) - (موريس بوكاي، ١٩٧٨: ١٤٤).. ثم إن بوكاي، عندما يقارن نصوص القرآن الكريم، بمقابلاتها في الكتب المقدسة الأخرى يقول: (إن تصريحات القرآن على العكس مطبوعة بالإيجاز في القول، والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم) (ص: ١٧٤) وقد تعرض بوكاي لبعض التعليقات العلمية على مواضع متعددة في القرآن الكريم، قد نوافقه على بعضها وقد نختلف معه - من حيث المنهاج والموضوع - في بعضها الآخر، ولكنه لا يفتأ يؤكد هذا الذي ذكره في الاقتباس الأخير، وهو دليل سلبي ولكنه قوي، من أنه لم يجد في القرآن الكريم ما ينافي العلوم الحديثة في شيء.

وهذا الصدق المطلق الذي يجده العلماء في القرآن الكريم هو مصداق لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَوْ لَوْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آخِثًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢). ويتضح مما يقوله الإمام البيضاوي: أن الاختلاف المشار إليه في الآية الكريمة ليس مقصوداً على (تناقض المعنى وتفاوت النظم) - أي بين آيات القرآن نفسها - وإنما يشمل أيضاً (مطابقة بعض أخباره المستقبلية للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض).

وهذا المعنى هو الذي استشعره سير جيمس جينس (الفلكي العظيم، الذي اشتهر بيننا بكتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان: (الكون الغامض) عندما قرأ عليه العالم الهندي عناية الله مشرقي معنى الآيتين ٢٧ و ٢٨ من سورة فاطر (٢٧)، فصرخ قائلاً: (ما قلت؟ - إنما يخشى الله من عباده العلماء؟! مدهش! وغريب، وعجيب جداً! إن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة (أي بحوث سير جيمس نفسه)، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.. لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن (الله) هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش!.. وغريب، وعجيب جداً!!) - (وحيد خان، ١٩٧٣: ١٣٢ - ١٣٤، عن مجلة (نقوش) الباكستانية).

(٢٧) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء، ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ فاطر ٢٧، ٢٨.

وتفاصيل هذه الرواية ممتعة وذات مغزى، ويمكن الرجوع إليها في مصدرها.

وكتاب الله العزيز كله معجز، ويستطيع العلماء أن يتلمسوا دلائل إعجازه في شتى المجالات، فإذا ما كنا بصدد (إعجازه العلمي) تحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة، فلا نفتعل مناسبة أن نتشبه بلفظ أو نحمله فوق كل ما يحتمل، أو نجعل، أو نتجاهل حقائق التاريخ. وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى دقة مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن الكريم من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية^(٢٨).

تكوين العقلية العلمية في القرآن:

وأحب أن أشير هنا إلى قضية أراها في غاية الأهمية، وهي لم تأخذ حقها من اهتمام الباحثين في الدراسات القرآنية، وفي رأيي أنها أهم من إشارات الإعجاز العلمي، وهي: ما جاء به القرآن من (تكوين العقلية العلمية) التي ترفض الظن والخرص، واتباع الأهواء والعواطف، والتقليد الأعمى للأجداد والآباء، والطاعة العمياء للسلادة والكبراء، وتنظر في السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وتتعبد لله تعالى بالتفكر في الآفاق والأنفس، مثني وفرادي، وتعتمد البرهان في العقلية، والتوثيق في الثقليات، والمشاهدة في الحسيات.. إلى آخر ما ذكرناه في فصل كامل في كتابنا (العقل والعلم في القرآن)^(٢٩).

وهذه العقلية التي ينشئها القرآن بوصاياها، وتوجيهاته وأحكامه، هي التي تحقق الازدهار العلمي، وتهيب المناخ لظهور علماء يبحثون ويبتكرون في كل مجال، وهو ما حدث في الحضارة الإسلامية، التي جمعت بين العلم والإيمان، بل التي اعتبرت العلم ديناً والدين علماً، وكان علماءها أساتذة العالم، وكتبها مراجعهم، وجامعاتها مؤنثهم، لعدة قرون.

وذلك كله بفضل الإسلام الذي جعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

(٢٨) انظر: (العلوم البيولوجية في خدمة التفسير) ص ٧٠ - ٧٣.

(٢٩) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.